

الشبهة السابعة

السنة دُونَتْ في قصور الأمراء؟!!

أعداء السنة ظهروا من قديم ، وشغبوا حولها كثيراً ورددوا من الشبهات ما أملاه عليهم الشيطان ، ليكونوا من أصحاب السعير ، وعلى كثرة ما افتروا على سنة رسول الله ﷺ ، لم يتوسعوا في الشقاق مثل ما توسع فيه منكرو السنة المعاصرون .

فقد ملأوا صفحات الصحف الجديدة والقديمة صحباً وعويلاً وكرروا مراراً أن الحديث النبوي دُونٌ في قصور الخلفاء والأمراء ، وخضع مدونوها إلي أهواء أولئك الخلفاء والأمراء ، مُلأكَ الدنيا ، الذين كانوا يملكون الرفع والخفض والجاء والسلطان ، والدرهم والدينار؟

وأسهمت مجلة « روز اليوسف » خلال شهرى مارس وأبريل من هذا العام (١٩٩٩م) بنصيب وافر من نشر هذه الأكاذيب في أربع مقالات ضافية ، مع شبهات أخرى مما نتعرض له في هذه المواجهة .

والهدف من هذه الشبهة (السادسة) واضح ، هو تصوير السنة في صورة أكاذيب وافتراءات على صاحب الرسالة ، وأن الأحاديث النبوية المتداولة الآن بين يدي الأمة في كتب الجوامع والمسانيد والصحاح وغيرها ، لم يقلها النبي ﷺ ، ولكنها من اختراع أناس لا خلاق لهم وضعوها من أجل خدمة السلاطين والحكام ، واشتروا بها ثمناً قليلاً؟! .

هذا هو هدفهم . وكفى بذلك للسنة ضياعاً؟

تفنيد هذه الشبهة ونقضها :

لن نطيل الوقوف أمام هذه الشبهة ، لأنها من أكذب الأكاذيب ، ونكتفى في الرد عليها بما يأتي :

أولاً : أن من له إمام بالحديث النبوى وأغراضه التى قيل من أجلها ، لن يعثر على حديث فيه محاباة للأمراء والحكام والسلاطين ، بل سيجد فيها أحاديث تشدد النكير على تصرفات ولاة الأمور مهما علا سلطانهم فى الأرض . فهل لو كانت السنة دونت فى قصور السلاطين تبعاً لأهوائهم كنا نجد فيها هذا الحديث :

« أفضل الجهاد كلمة ، حق عند سلطان جائر » رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً . ورواه غير أبى داود .

فمن هو السلطان الذى يسمح بتدوين هذا الحديث وأمثاله فى قصره ، ويمنح واضعه العطايا ؟ أليس فى هذا الحديث تحريض وترغيب فى التصدى للسلاطين والإنكار عليهم ؟ وأنت ترى أن هذا الحديث يجعل مقاومة الظلمة من السلاطين أعلى مرتبة من مراتب الجهاد .

وهل لو كانت السنة قد دونت فى قصور السلاطين تبعاً لأهوائهم كنا نجد فيها هذا الحديث :

« من بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا للذى بايعه » رواه الإمام أحمد .

إن هذا الحديث يسد منافذ كثيرة يمكن من خلالها أن يستبد الحكام بأمور المسلمين ، فمن هو السلطان الذى يسمح بوضع هذا الحديث فى قصره ؟ ويمنح العطايا الجزيلة لمن يلف حبل المشنقة حول عنقه ؟ إن هذين الحديثين ، وغيرهما كثير ، كافيان فى تبرئة السنة من هذه الشبهة القاصمة .

ثانياً : إن علماء الحديث أنفسهم كانوا لا يقبلون حديثاً فى سنده رجل عُرف بالتردد على السلاطين أو قبول هدايا منهم ، أو كانت له خطوة عندهم وهذا منهم احتياط عظيم لحماية السنة من الدخيل والعليل والمكذوب .

ثم إنه تطبيق عملى لحديث يروى فى هذا المعنى : « شرار العلماء الذين يغشون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يغشون العلماء » .

فكيف يصح مع هذا اتهام علماء الحديث بأنهم كتبوها فى قصور الأمراء والسلاطين ، استجابة لأهوائهم وشهواتهم .

إن علماء الأمة - بوجه عام - كانت علاقاتهم بالحكام والسلاطين قلقة ، وكان العلماء يترفعون عن التردد على قصور الحكم وبلاط الرياسات ، سواء كانوا فقهاء أو محدثين ، وما كانوا يتهاونون فى الثورة والاحتجاج على الباطل وإن اعتصم الباطل بالعروش والصولجانات الرهيبة ونكتفى بذكر واقعة واحدة هنا توخيا للإيجاز :

دخل الإمام الزهري المحدث على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد :

ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال الزهري : وما هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعية - أي جعله حاكماً - كتب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات .

قال الزهري : باطل يا أمير المؤمنين ، أنبى خليفة أكرم على الله ، أم خليفة

غير نبي ؟

قال الوليد : بل نبي خليفة أكرم على الله من خليفة غير نبي .

قال الزهري : فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]

فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبي .

قال الوليد : إن الناس ليغووننا عن ديننا . [العقد الفريد : ج١ ص ٦٠] .

انظر شجاعة الزهري وجراته على دحر الباطل ونصرة الحق . وهذه الواقعة

جرت أحداثها فى قصر الوليد بن عبد الملك حاكم زمانه ، والزهري من أعلام

علماء الحديث وموقفه هذا هو المنهج الذى سار عليه رجال الحديث الأتقياء

البررة ، فأين الزور الذى يروج له منكرو السنة فى زماننا هذا من هذا الحق ، الذى

زين الله به خدام سنة رسوله الكريم .

ومن شاء المزيد من هذه «البطولات» فليقرأ سيرة الأئمة الأربعة ، أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، ليرى مواقفهم الناصعة أمام حكام عصرهم ، وتشدهم فى إقرار الحق ودفع الباطل ، والاعتزاز بكرامة الإيمان والعلم .

● فابو حنيفة تؤدى به الجفوة بينه وبين الحكام إلى الزج فى غياهب السجون المظلمة الظالمة ، ويلقى منيته وهو مسجون كما فى بعض الروايات .
● ومالك لما خالف هوى حكام عصره آذوه وخلعوا ذراعاه وأصابوه بالأمراض .

● والشافعى يضيق به الأمراء ذرعا ويطاردونه من قطر إلى قطر ، دون أن ينيلهم ما يرجون .

● وأحمد يقف كالطود العظيم شامخا بإيمانه وعلمه ويحل به العذاب الظالم حتى ينفد وعيه ، ولا ينحرف قيد أنملة نحو الباطل الذى كانوا يراودونه عليه .

هذه قبسات مضيئة سجلها التاريخ بأحرف من نور للفقهاء والمحدثين ، الذين يتناول عليهم الآن شرذمة لا خلاق لهم من بنى جلدتنا ، ويتكلمون بلسانتنا ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، إنهم جنود إبليس وإن صلوا وصاموا وزعموا أنهم مسلمون . والله لهم بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

* * *